الاستيلاء على الطائف

يقول ابن بشر ، في أخبـار سنة ١٢١٧ هـ . ان عثمان المضايفي نابذ الشريف غالب لنقضه الصلح الذي كان قائماً بينه وبين عبد العزيز ، وخرج من مكة ، وذهب الى الدرعية فبايع عبد العزيز على دين الله ورسوله والسمع والطاعة ، ثم عـاد الى بلدته « العبيلاء » (القرية المعروفة بين تربة والطائف ، واجتمع عليه جنود من أهل الحجاز وغيرهم .

ثم سار الشريف غالب بالعساكر والجموع ونازله في العبيلاء ، ووقع القتال ، ولم يحصل الشريف غالب على طائل ، ورحل عنه ودخل الطائف .

ثم ان عثمان المضايفي استنجد من يليه من المسلمين ، من الحاضرة والبادية ، فسار اليه سالم بن شكبان بأهل بيشة وقراها ، ومصلط بن قطنان بأهل رنيه وقراها ومن كان عنده من سبيع ، وسار أيضاً حمـد بن يحيى بأهل تربة ومعه البقوم ، وسار هادي بن قرملة ومعه جيش من قحطان ، وسار اليه غـير ذلك من عتيبة وغيرهم ، فاجتمعت تلك الجموع عنـد عثمان ، فساروا الى الطائف ، وفيها الشريف غالب وقـد تحصن فيها وتأهب واستعد لحربهم ، فنازلته تلك الجموع فيها ، فألقى الله في قلبه الرعب وانهزم الى مكة وترك الطائف ، فدخله عثمان ومن معه من الجموع ، وفتحه الله لهم عنوة بغير قتال ، وقتلوا من أهله في الأسواق والبيوت نحو مائتين ، وأخذوا من الأموال من البـلد أثماناً وأمتاعاً وسلاحاً وقماشاً وشيئاً من الجواهر والسلع الثمينة مـا لا يحيط به الحصر ولا

يدركه العدّ ، وضبط عثمان البلد وسلمت له جميع نواحيه وبواديه ، وجمعوا الأخماس وبعثوها لعبد العزيز ، فقرر ولاية عثمان للطائف ، واستعمله أميراً عليها وعلى الحجاز .)

مناقشة رواية ابن بشر ومقارنتها بغيرها والزيادة عليها :

في رواية ابن بشر – كما يبدو لنا – مواطن ضعف ونقص ، فأما الضعف او الخطأ ففي قوله ان الاستيلاء على الطائف تمّ بدون قتال ، وأما النقص ففي قوله ان المضايفي استنجد بمن يليه من المسلمين ليحاربوا معه الشريف ..

ونبدأ من النقطة الثانية ، فمن غير المعقول أن يسير زعماء المناطق والعشائر الموالية لعبد العزيز الى قتال الشريف غالب لمجرد استنجاد المضايفي بهم . ولقد أحسن المؤرخ الفرنسي « مانجان » بقوله ان المضايفي ، لما عاد من الدرعية الى الحجاز ، كان يحمل معه رسالة من عبد العزيز الى الشريف غالب يخيّره فيها بين السلم والحرب ، ورسالة الى أمير بيشة أن يضع نفسه – في حال الحرب مع الشريف – تحت إمرة المضايفي ؛ وهكذا يفعل سائر الزعماء الموالين ..

لا يستبعد مانجان أن يكون المضايفي ذهب الى الدرعية بأمر من الشريف ، ولكنه كان يكتم في نفسه أمراً ، وقد أراد البقاء في الدرعية مدة من الزمان لاجئاً سياسياً ، ولكن عبد العزيز نصحه بالعودة الى الحجاز ، فعاد ، ولما وصل العبيلاء ، مكث فيها ولم يذهب الى الشريف غالب ليبلغه نتيجة مفاوضاته في الدرعية ، وإنما بعث اليه برسالة عبد العزيز مع رسول اختاره من رجاله الأمناء لهذه الغاية ، وقال له : أبلغ الشريف أن المضايفي لن يأتي لمقابلتك إلا إذا أعلنت طاعتك لعبد العزيز !

ولما سمع الشريف غالب كلمات المضايفي ، التي نقلها اليه رسوله ، وعرف تصميمه على عداوته واستعداده لمقاتلته ، غضب وثار ، وعزم على المسير اليه ، وسار اليه وقاتله في العبيلاء ، فلما عجز عنه عاد الى الطائف وتحصن فيها !

القتال في الطائف وهرب الشريف :

أبلغ المضايفي أنصارَ الدعوة في الحجاز وما جاورها رفضَ الشريف للصلح

وأمرَ عبد العزيز لهم بمحاربته، فجاؤوا اليه وساروا تحت قيادته لحرب الشريف في الطائف، وأغلب الظن أن ابن شكبان ورجاله هم وحدهم الذين وصلوا لنجدة المضايفي، ومهما يكن الأمر فإن أهل الطائف حاربوا المضايفي وجماعته ثلاثة أيام، ولما أدرك الشريف أنه غير قادر على المقاومة أحرق داره – كما يقول الجبرتي – وهرب إلى مكة.

ويزعم ابن دحلان ان الشريف لم يهرب من الطائف خوفاً على نفسه، ولكنه خرج منها ليدافع عن مكة، فقد بلغه ان ابن شكبان ومَن معه من العربان توجهوا اليها، فأراد أن يحول دون ذلك لأن مكة أهم من الطائف، ويزعم ابن دحلان أيضاً ان الشريف غالب – وقد رأى الخلل الذي وقع في صفوف عربانه وعساكره – عالجهم على القعود وحرّضهم على القتال وأعطى كل واحد (عشرة مشاخصة وتوجه إلى مكة على طريق المثناة، ولما انفصل وغاب عن الطائف انفشل أهلها وذهلت عقولهم وتركوا الحصون والأسوار، وخرج من الطائف رجل يسمى «دخيل الله بن جريب» فأسرع مُجدّاً في طلب الوهابيين واسترجاعهم بعد أن ولّوا مدبرين، وأخبرهم بتوجه الشريف إلى مكة، فرجعوا مقبلين، وتقدمهم رجل يقال له «عبد الله البويخيت»، وكان من كبارهم، يمهد لهم الامور ويخبرهم بمن بقي في السور، فدخلها مع دخيل .. وجاء إلى بيت ابراهيم الزرعة، وكان من أعز أهل البلد، فاتفق معه على مبلغ جزيل من المال يدفعه لسلامة أهل البلد، وخرج البويخيت على أن يأتيهم بالأمان من عثمان وسالم بن شكبان، فرماه بعض أهل الطائف برصاصة .. فكان فيها موته وهلاكه، فلما علمت الوهابية بذلك حملوا على السور حملة واحدة، ولم يوجد مَن له قدرة على قتالهم ومدافعتهم، وكان جماعة من أهل الطائف خرجوا قبل ذلك هاربين فأدركتهم الخيل وقتلوهم وما سلِمَ منهم إلا القليل.)

مذبحة الطائف:

إذا صحّت رواية ابن دحلان، كان مقتل البويخيت غدراً سبباً في إثارة

غضب الموحدين وانتقامهم ، ولكن شيئاً على كل حال لا يبرر كثرة الفظائع التي ارتكبت ضد أهل الطائف العُزّل من السلاح، فقد استنكر أكثر المؤرخين هذه الأعمال .

وأما زعم ابن دحلان انهم قتلوا الأطفال الرضّع على صدور أمهاتهم .. ولم يُبقوا حيّاً .. فمحض كذب وبهتان .

لقد قدّر ابن بشر قتلى الطائف ، في البيوت والأسواق، بمائتين، وقد يكون هذا الرقم صحيحاً او دون الحقيقة ، ولكن ابن بشر كان مطالباً بالتنبيه على الأخطاء التي وقعت في الطائف حتى يتعظ بها الناس ، وقد أدرك الإمام سعود ذلك ، فقال ، عند دخوله مكة ، انه جاء اليها ليشرف بنفسه على أمنها ، ويمنع أن يحدث فيها ما حدث في الطائف ، وفي هذا اعتراف بالأخطاء التي ارتكبت في الطائف واستنكار لها ، ولعل الإمام سعود ما أسرع في إعطاء الأمان لأهل مكة إلا شفقة عليهم ومنعاً لتكرار مأساة الطائف في بلدتهم المقدسة .